بعد سَكْرة الانتخابات

بقلم غسان سلامة

يستفيق اللبنانيون، مطلع الاسبوع المقبل، وقد هبطت نشوة مهرجاناتهم الانتخابية وتلاشت حدة حرارتها، على واقع اقليمي كانت حرارة الصيف وزحمة المرشحين قد سمحتا لهم بتناسيه، فاذ به يعود اليوم ضاغطا، متحولا، محوريا في تكوين حاضرهم كما في تحديد ملامح المستقبل.

وتعود معه الاسئلة الكبرى، تلك التي تمس نتائج تحولات المنطقة على وضع لبنان، البلد الشديد التأثر بمحيطه، مهما تزايدت محاولات تطبيعه ومهما تعددت طرق الاستئثار بالتأثير عليه. وينظر اللبنانيون من حولهم، ليلمسوا تعدد المتغيرات السياسية التي جرت في جوارهم خلال الصيف بينما هم منهمكون في التشطيب والخروق والمقاطعة.

يلحظون آنذاك ان الاصولية المحافظة وصلت اخيرا الى السلطة في تركيا، وانها بادرت فورا الى تعزيز التوجه نحو آسيا الاسلامية. ويلحظون ايضا ان العقوبات الجديدة المفروضة على ايران لم تمنع طهران من توقيع اتفاق غازي هائل مع تركيا ولا من بناء مصفاة جديدة في باكستان ولا هي قضت على طموحات ايران الافريقية البارزة للعيان في زيارة رفسنجاني للخرطوم. ويلحظون ثالثا ان صواريخ الاسطول الاميركي السابع على الكوت والناصرية لم توقف تقدم بغداد نحو كردستان العراقية ولا هرولة مسعود البارزاني في اتجاه صدام حسين. كما انهم لا ريب لاحظوا ان القوات الاميركية المنتشرة في دول الخليج لحماية نفطه امست هي الاخرى في حاجة لحماية، اذ غادرت ثكنها في الخبر والظهران الى مناطق نائية في قلب الجزيرة العربية بعد انفجار الخبر الخطير.

ان كان من رابط بين هذه التحولات، وغيرها مما لم نذكر، فهو ولا شك عجز الدولة الاكبر في العالم، والاكثر نفوذا، الولايات المتحدة الاميركية، عن التحكم المطلق في مجريات الامور في المنطقة وعن فرض نظام اقليمي متكامل تحت ادارتها. فالقوى الاقليمية على تفاوت قوتها، وعلى تعدد اهدافها، وعلى اختلاف انظمتها السياسية، ما زال لديها من

– التتمة في الصفحة ١٦ –

– تتمة المنشور في الصفحة ١ –

عناصر الاستقلال ما يكفي لتحدي الخطط الاميركية، ولدفع واشنطن الى موقع الدفاع عن مصالحها، بدل المبادرة الى توسيع رقعة نفوذها.

* * *

وتنطبق هذه القاعدة ايضا، ولو بوضوح اقل، على الموقف العربي من اسرائيل بعد انتخاب نتنياهو ووصول "الليكود" الى السلطة. فرغم المشاشة المستمرة في الموقف العربي منذ عقد ونيف، تمكنت الاطراف العربية من الاجماع على الحد الادنى الضروري لتطويق آثار فوز "الليكود" الانتخابي والتخفيف من نتائجه الاقليمية. فاجتمع العرب في القاهرة على قاعدة ان السلام خيارهم وان وقف مسيرته مسؤولية خصمهم، لا من فعلهم هم. وهدد حسني مبارك، وربما انه سائر في تهديده حتى التنفيذ، بتأجيل القمة الاقتصادية الثالثة المنوي عقدها في القاهرة بعد شهرين من اليوم. ورفض العاهل المغربي مرتين متتاليتين استقبال رئيس الحكومة الاسرائيلية ما دام مسلكه العدائي نحو الفلسطينيين مستمرا. وتلاشت رغبة بعض الخليجيين والمغاربة في تطبيع علاقاتهم باسرائيل، بينما اضطر الاردن الى تعديل خطابه السياسي المعلن، لضرورة اخذ الوضع العربي الجديد في الحسبان. كما اصبحت اللقاءات الممنوعة بالامس، مكان ترحيب وحماسة، فزار اللاذقية كل من ياسر عرفات والملك حسين، كما قبل العاهل السعودي، بعد انتظار سنوات ست، استقبال نظيره الاردني، وزار امير قطر الجديد المملكة السعودية. وكان من اثر تلك الزيارات، ايجاد سيولة جديدة في العلاقات العربية عوضا عن التكلس والحقد اللذين كانا يتحكمان فيها.

وكانت لهذه التحولات الاقليمية آثار مهمة على الرأي العام الاسرائيلي الداخلي اذ بدأ الاسرائيليون يتفهمون قاعدة سياسية دقيقة مفادها ان ليس في وسعهم اختيار "الليكود" من جهة والاحتفاظ بمكاسب التسوية بلا قيد ولا شرط من جهة اخرى. فعلت الاصوات داخل اسرائيل تطالب نتنياهو بالتخلي عن عنترياته الكلامية وذهب بيريس في تهكم خلفه حتى القول ان نتنياهو حقق معجزة لم يقدر العرب انفسهم على تحقيقها، وهي العودة الى موقف عربي جماعي موحد. اما رجال المال والاعمال في اسرائيل فقد تنبهوا الى ان فوز "الليكود" ادى الى تراجع ملحوظ في نسبة نمو الاقتصاد الاسرائيلي (٤ في المئة لعام ١٩٩٦ بدلا من سبعة كما كان متوقعا)، والى سقوط اسعار الاسهم في بورصة تل ابيب، كما الى تدهور اسعار سندات الخزينة الاسرائيلية بحيث اضطرت الحكومة الى اعادة شراء بعضها لكي توقف انحدار اسعارها.

وكان للمؤسسة العسكرية الاسرائيلية ان تدلي هي الاخرى بدلوها، فبادرت الى تذكير نتنياهو بان سوريا لن تقبل بالتفاوض ان لم تكن استعادة الجولان هدف ذاك التفاوض. كما بادرت الى تحذيره بأن موقفه العدائي من عرفات من شأنه ان يدفع في القريب العاجل او الآجل الى تفجر انتفاضة فلسطينية جديدة. وقد تحفظت ايضا عن حظوظ سياسة "لبنان اولا" في النجاح ما دام النفوذ السوري كما هو في لبنان. فاضاف عسكر اسرائيل تدريجا جرعات من الواقعية الى نظرة الحكومة الجديدة الشديدة التبسيط، بل الخرقاء، للواقع الاقليمي. وربما كان عازر وايزمان، رئيس الدولة، اكثر ميلا لتلك الواقعية، فبادر الى التهديد بلقاء عرفات بنفسه اذا بقي رئيس الحكومة رافضا لاجراء ذاك اللقاء.

فما كان من واشنطن، التي اصيبت في مطلع الصيف بقدر من الهلع حيال مواقف الحكم الاسرائيلي الجديد، الا ان تمالكت اعصابها واستعادت بعض شجاعتها رغم قرب موعد الانتخابات الرئاسية الاميركية، فسعت هي الاخرى لتطويع نتنياهو ولجعله يصافح عرفات، ويحدد موعدا لعودة المفاوضات، ويتناسى مشروع "لبنان اولا" ويعدل مواقفه الاولى من مسألة الجولان، ويكف عن اطلاق التهديدات ذات اليمين وذات اليسار. بل ان هناك من راح يقول داخل اسرائيل نفسها ان الحكومة الليكودية بتركيبتها الراهنة امست خطرا على مصالح اسرائيل العليا بسبب تطرفها وتعريضها للخطر امن اسرائيل والمكاسب التي جنتها الدولة العبرية من مسيرة التسوية حتى اليوم. وهناك من يتوقع اعادة تشكيل تلك الحكومة خلال ١٩٩٧ كي تضم اليها ممثلي الوسط السياسي من "الليكود" و"العمل" معا، بحيث تتمكن من تقديم التنازلات الضرورية لانقاذ مسيرة التسوية.

* * *

وان كان من خلاصة تستنتج من مجمل هذه التحولات، فهي ان حقبة من عمر المنطقة تطوي اليوم صفحتها. فالاعوام الستة الماضية كانت مرحلة فريدة في تاريخ شرق المتوسط، بدأت بانهيار الاتحاد السوفياتي، وبهزيمة العراق العسكرية، وباطلاق مسيرة التسوية بين العرب واسرائيل، وكلها احداث جليلة حصلت بفارق اشهر قليلة خلال ١٩٩١، وكانت جميعها تصب في خانة اعطاء الولايات المتحدة دور المهندس الاوحد للنظام الاقليمي في الشرق الاوسط، بلا منافس خارجي فعال، وبلا ممانعة ناجحة من القوى المحلية نفسها.

اما اليوم، فكل واحد من هذه المعطيات امسى عرضة لتحد حقيقي، يضعف حظوظ نجاحه. فروسيا الاتحادية عادت تتخذ مواقف مستقلة من المنطقة كما بدا من ردود فعلها على انتخاب "الليكود"، وعلى قصف العراق بالصواريخ الاميركية. وهزيمة العراق تتحول اليوم مشروعا قيد التحقيق لاعادة وحدة اراضيه ولالغاء قرار الغرب بفصل شماله الكردي عن متنه العربي. اما مسيرة التسوية التي بدأت في مدريد فهي في حالة جمود مقلق ما دام الحكم الاسرائيلي الجديد مصرا على رفض مبدأ الارض في مقابل السلام الذي كان القاعدة الاساسية لاطلاق تلك المسيرة.

وستدفع هذه التحديات المتعاظمة الرئيس الاميركي الذي سينتخب في الخامس من تشرين الثاني المقبل (او سيعاد انتخابه) الى الاقرار بعدد من الحقائق البديهية. اولاها ان مرحلة التفرد الاميركي في الشرق الاوسط، في السلم كما في الحرب، قد انتهت، وثانيتها ان واشنطن قادرة على حماية مصالحها الذاتية في المنطقة ولكنها تعجز عن فرض نظام اقليمي شامل لا يتوافق مع مصالح وتطلعات عدد كبير من دول المنطقة. اما الحقيقة الثالثة فهي ان رابطا متينا يجب اخذه في الاعتبار بين ما هو حاصل في الخليج وما هو جار في موضوع التسوية بين العرب واسرائيل: فلا أمن اميركيا في الخليج بدون تسوية عادلة للنزاع العربي – الاسرائيلي، ولا تسوية لذاك النزاع بدون شعور كل دول الخليج بأن امنها غير مهدد.

حيال هذه التحديات، هناك ميل اميركي للقنوط والانكفاء طالعنا به اميركيون عديدون منهم ريتشارد هاس في العدد الاخير من مجلة "فورين افيرز" العريقة. ويرى هاس، الذي كان مستشارا للرئيس جورج بوش في البيت الابيض اعواما طويلة، ان لا مجال لاتفاقات جديدة بين العرب واسرائيل وان على واشنطن الا تسعى بعد اليوم لتوقيع اي اتفاق جديد، بل عليها فقط ان تكتفي بما تم انجازه وتنتظر مطلع القرن المقبل للعودة بزخم الى ديبلوماسية التسوية. ويلقى هذا الموقف هوى في اوساط الحزبين المتنافسين على الرئاسة الاميركية لكن الرئيس الاميركي المقبل ادرى من المستشار السابق هاس، بان في الشرق الاوسط من الثروات والنزاعات ما يمنع على واشنطن الانتقال نحو الاستكانة والقنوط، وبان وزير الخارجية الاميركي المقبل سيحمل عصا السفر من سلفه كريستوفر، ويعود الى المنطقة. ذلك ان ما تم انجازه من التسوية لن يدوم ان لم يتم التوصل الى ما يثبته ويدعمه، اي تسوية شاملة للجميع. فما لم تدرك التسوية كلها، ظلت اجزاؤها عرضة للضياع والتفتت.

غسان سلامة ٩٦/٩/١١